﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 1 - 10]

❁ مناسبةُ مَطلَعِ السّورةِ لآخرِ سورةِ البلد:

الله تعالى هو المُتولّي للثَّواب والعِقاب

لمّا خُتِمَتْ سورةُ البلد بذِكرِ أصحابِ المَيمَنةِ وأصحابِ المَشْأَمَةِ، جاءَتْ سورةُ الشَّمس بذِكْرِ الفَريقَين في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

ومنها لمّا أثبتَ اللهُ ﷻ في سورةِ البلدِ أنَّ الإنسانَ في كَبَدٍ، وختمَها بأنَّ مَن حادَ عن سبيلِهِ كان في النّارِ المُؤصَدَةِ؛ أقسمَ أوَّلَ هذهِ السّورةِ على أنَّ الفاعلَ لذلك أوَّلًا وآخِرًا هو سبحانهُ؛ لأنَّه يَحولُ بين المرءِ وقلبِهِ، فأقسمَ بما يدلُّ على تمامِ علمِهِ وشُمولِ قُدرتِهِ في الآفاقِ والأنفُسِ، وبدأ بالعالمِ العُلويِّ؛ فأفادَ ذلك قَطعًا العِلمَ بأنَّ اللهَ هو الفاعلُ المختار[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: (ضحى) أصلٌ يدلُّ على بُروزِ الشَّيء، ومن ذلك: الضَّحاء والضُّحى، وهو انبساطُ الشَّمسِ وامتدادُ النَّهار، وسُمّيَ الوقتُ به، قال اللهُ تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46][2]، ويقال: ضَحيَ الرَّجل يضحَى، إذا تعرَّض للشَّمس، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: 119]، أي: لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضحي).

يُؤذيكَ حرُّ الشَّمس[1]، ويقال: ضَحيتُ، أي: عرقْتُ، وضحَّى فلانٌ غَنَمَه: رَعاها بالضُّحى[2]. والمُرادُ بالضُّحى هنا: ضوء الشَّمس وإشراقُها، أو النَّهار[3].

2) ﴿تَلَىٰهَا﴾: (تلو) أصلٌ يدلُّ على الإتباعِ، يقال: تلوتُه إذا تَبِعْتُهُ، وذلك يكون تارةً بالجسم، وتارةً بالاقتداء في الحكم، وسُمّيت تلاوةُ القرآنِ بذلك؛ لأنَّ القارئَ يُتبِعُ كلَّ كلمةٍ أختها[4]، وتَتالت الأمورُ: تلا بعضُها بعضًا، وأتليتُه إيّاه: أتبَعتُه إيّاه، ويقال: ما زِلتُ أتلوهُ حتَّى أتليتُه، أي: تقدَّمتهُ وصار خلفي، وأتلَيتُه: سبقتُه[5]. والمراد بـ ﴿تَلَىٰهَا﴾: تبعَها بطلوعه بعد غروبها، أو تبعَها ليلة الهلال، وذلك أنَّه إذا سقطت رُئيَ الهلال[6]، أو تبعَها في الاستدارة وكمال النّور[7]. ويكون المرادُ الاتِّباعَ على سبيلِ الاقتداءِ والمرتبة، وذلك أنَّه يُقالُ إنَّ القمَرَ هو يَقتبسُ النّورَ من الشَّمس، وهو لها بمنزلةِ الخليفة[8].

3) ﴿جَلَّىٰهَا﴾: (جلو) أصلٌ يدلُّ على انكشافِ الشَّيء وبُروزِه، ومن ذلك يُقال: تجلَّى الشَّيءُ، إذا انكشف[9]، والجَليُّ: ضدُّ الخَفيِّ[10]، وأجليتُ القومَ عن منازلهم فجلَوْا عنها، أي: أبرَزتُهم عنها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [الحشر: 3] والتَّجلّي قد يكونُ بالذّات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: 2]، وقد يكونُ بالأمر والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143][11]. والمرادُ بـ ﴿جَلَّىٰهَا﴾: كشفَها وأزالَ الظُّلمة[12].

4) ﴿يَغْشَىٰهَا﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تغطيةِ شيءٍ بشيء[13]، ومن ذلك يُقال: غشَّيتُ الشَّيءَ تغشيةً إذا غطَّيته، والغِشاء: الغِطاء[14]، والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشَى الخلقَ، أي:

(1) الخليل، العين: (ضحي).
(2) الجوهري، الصحاح: (ضحي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 451، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (تلو).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 73.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 163.
(8) الراغب، المفردات: (تلو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلو).
(10) الرازي، مختار الصحاح: (جلو).
(11) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (جلو).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (غشي).

تُغطّيهم وتُصيبهم بأفزاعها وأهوالها، ويُقال: غشيَتْهُ غاشيةٌ، أي: أصابَتهُ داهية، وغاشيةُ السَّيف والرَّحل: غِطاؤه[1]، ويقال: غَشيَ اللَّيلُ، وأغشَى، أي: أظلمَ[2]. والمراد بـ ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾: يُغطّيها فتغيبُ فتُظلِمُ الآفاق[3].

5) ﴿بَنَىٰهَا﴾: (بني) أصلٌ يدلُّ على بناء الشَّيء بضمِّ بعضِهِ إلى بعض[4]، ومن ذلك يُقال: بنيتُ أبني بناءً وبنيةً وبنًى، قال ﷻ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾ [النبأ: 12]، والبناء: اسمٌ لما يُبنى، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: 20]، والبَنيَّة: الكعبة[5]، ويُقال: أبنيتُ الرَّجل: أعطيتُهُ بناءً أو ما يَبني به دارَهُ[6]، والبِنى: الأبنية من المَدَر والصّوف[7]. والمراد بـ ﴿بَنَىٰهَا﴾ هنا: خلقَها ورفعَها[8].

6) ﴿طَحَىٰهَا﴾: (طحو) أصلٌ يدلُّ على البسطِ والمدِّ[9]، ومن ذلك يُقال: طحا الشَّيءَ يَطحوهُ ويطحيه طَحًيا، أي: بَسَطَه، والطّاحي: المُنبسطُ على وجه الأرض، ويُقال: طحا بك همُّك، إذا ذهبَ بك في الأمر، ومدَّ بك فيه[10]، وما أدري أينَ طحا، أي: أين ذهب، من طحا الرَّجلُ، إذا ذهبَ في الأرض[11]، وطحا به قلبُه، إذا ذهبَ به في كلِّ شيء[12]. والمراد بـ ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسَطَها من كلِّ جانب[13].

7) ﴿وَنَفۡسٖ﴾: (نفس) أصلٌ يدلُّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، ومن ذلك: التَّنفُّس، وهو خروجُ النَّسيم من الجوف[14]، والمنافسةُ: مجاهدةُ النَّفس للتَّشبُّه

(1) الخليل، العين، والزمخشري، أساس البلاغة: (غشي).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (غشي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 453، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).
(5) الخليل، العين: (بني).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (بني).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طحو).
(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طحو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طحو).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (طحو).
(13) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

بالأفاضلِ واللُّحوق بهم، قالَ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26][1]، والنَّفسُ: ذاتُ الشَّيء وجملتُهُ، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185][2]، والنَّفس أيضًا: الرّوح[3]، ويقال: دَفَقَ نفسَهُ، أي: دمَهُ[4]. والمرادُ بالنَّفس هنا: آدمُ أو جميعُ الأنفس[5].

8) ﴿سَوَّىٰهَا﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين[6]، والاستواءُ يُقال للتَّماثل والتَّساوي، نحو: استوى زيدٌ وعمرو في كذا، أي: تساويا وتماثلا، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: 19]، ومنه قولهم: هذا يساوي درهمًا، أي: تعادل قيمتُه درهمًا[7]. ويقال أيضًا لاعتدال الشَّيءِ في ذاتِه، كقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦﴾ [النجم: 6][8]، والسَّويُّ: ما يُصانُ عن الإفراط والتَّفريط من حيثُ القَدْرُ والكيفيَّةُ، ومن ذلك يقال: رجلٌ سَويٌّ، أي: استوَتْ أخلاقُهُ وخِلْقتُهُ عن الإفراط والتَّفريط[9]. والمراد بالتَّسوية هنا: الخَلْقُ والتَّهيئةُ والتَّعديل[10].

9) ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾: (لهم) أصلٌ يدلُّ على ابتلاع شيء[11]، ومن ذلك يقال: التَهَمَ الشَّيءَ، إذا ابتلَعَهُ، ولهمَ الماءَ لَهْمًا: جرعَهُ، وجيشٌ لهّامٌ: كثيرٌ يَلتهِم كلَّ شيء[12]، والتَهَمَ الفصيلُ ما في الضَّرع: استوفاه[13]، وفرسٌ لَهِمٌ: كأنَّه يلتهِمُ الأرض لشدَّة عَدْوِه، ومن هذا الباب: الإلهامُ، كأنَّه شيء أُلقيَ في الرّوع فالتهمَهُ، ويختصُّ الإلهام بما كان من جهةِ الله تعالى، وجهةِ الملإ الأعلى[14]. والمُرادُ بـ ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ هنا: فعرَّفها[15].

10) ﴿فُجُورَهَا﴾: (فجر) أصلٌ يدلُّ على التَّفتُّح في الشَّيء، ومن ذلك: الفجر، وهو

(1) الراغب، المفردات: (نفس).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (نفس).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نفس).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (نفس).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (سوي).
(8) الراغب، المفردات: (سوي).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (سوي).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهم).
(12) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لهم).
(13) الجوهري، الصحاح: (لهم).
(14) الراغب، المفردات: (لهم).
(15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.

انفجارُ الظُّلمة عن الصُّبح[1]، وانفجرَ الماء والدَّم ونحوُهما، وتفجَّر: انبعث سائلًا[2]، وفجر الرَّجلُ القناةَ فجرًا: شقَّها، وفجَّر الماءَ: فتحَ له طريقًا فانفجَر، أي: فجَرَى[3]، والفُجْرة: موضعُ تفتُّح الماء، وفجَرَ فُجورًا، أي: فسقَ، وفجَرَ: كذَبَ، وأصلهُ المَيل، والفاجر: المائل[4]. والمراد بالفُجور هنا: طريق الشَّرِّ[5].

11) ﴿أَفْلَحَ﴾: (فلح) أصلان: أحدهما يدلُّ على فوزٍ وبقاءٍ[6]، والفلاحُ: الفوز والظَّفرُ بالبُغية[7]؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 5][8]، والفَلاحُ نوعانِ: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعاداتِ الَّتي تَطيبُ بها الحياةُ، وهي البقاءُ والغِنى والعِزُّ، والأُخرويُّ أربعةُ أشياءَ: بقاءٌ بلا فناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعلمٌ بلا جهلٍ[9]. والمراد بالفلاح هنا: إدراكُ المطلوب[10].

12) ﴿زَكَّىٰهَا﴾: (زكي) أصلٌ يدلُّ على نماء وزيادة[11]، ومن ذلك يقال: زكا الزَّرعُ يزكو، أي: نما[12]، وسُمّيَتْ الزَّكاة بذلك؛ لأنَّها ممّا يُرجَى به زيادةُ المال ونماؤه، أو لأنَّها طهارةٌ له، وكلُّ شيءٍ يَزداد ويَسمَنُ فهو يزكو[13]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف: 19] إشارةً إلى ما يكون حلالًا لا تُستوخم عُقباه[14]، وبزَكاء النَّفس وطَهارتها يَصير الإنسان بحيث يستحقُّ في الدُّنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرةِ الأجرَ والمثوبة، وهو أن يتحرَّى الإنسانُ من الطّاعاتِ ما فيه تطهيرُه[15]. وهو المراد هنا[16].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فجر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (فجر).
(4) الجوهري، الصحاح: (فجر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(7) الجوهري، الصحاح: (فلح).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(9) الراغب، المفردات: (فلح).
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكو).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة: (زكو).
(14) السمين، عمدة الحفاظ: (زكو).
(15) الراغب، المفردات: (زكو).
(16) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

13) ﴿خَابَ﴾: (خيب) أصلٌ يدلُّ على حرمانٍ وعدمِ فائدة[1]، ومن ذلك يقال: خاب يخيب خيبةً: لم يظفر بما طلبَ[2]، قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: 15]، وقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: 61][3]، والخيّاب: القدح الَّذي لا يوري، والَّذي لا يفوز من السِّهام أيضًا[4]، وخيَّبَهُ اللّه: حرَمَهُ[5] وجعله خائبًا. والمرادُ بالخيبة هنا: الخسران[6].

14) ﴿دَسَّىٰهَا﴾: (دسس) أصلٌ يدلُّ على دخول الشَّيء تحت خفاءٍ وسرٍّ[7]، ومن ذلك يقال: دسَسْتُ الشَّيءَ في التُّراب أدسُّه: أخفيته فيه[8]، قال تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: 59][9]، ويقال: دسَّه إذا أدخَلهُ في الشَّيء بقهرٍ وقوَّة، والدَّسيس: إخفاء المكر[10]، والدَّسّاسة: حيَّةٌ صَمّاءُ تندَسُّ تحت التُّراب اندِساسًا، أي: تندَفِنُ فيه[11]. والمراد بـ ﴿دَسَّىٰهَا﴾: أضلَّها وأغواها بالمعاصي[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسان مُعتِقٌ نفسَه أو موبِقُها

صُدِّرَت هذه السّورةُ بالقسَم؛ إذْ أقسَمَ اللّه تعالى بجملةٍ من المخلوقات، فيقول: والشَّمسِ وضوئِها، والقمرِ إذا تَبِعَها، والنَّهارِ إذا أضاءَ وغَشيَها، أو: وأزالَ الظُّلمةَ، واللَّيلِ إذا يغشَى الشَّمسَ حين تغيبُ فتُظلم الآفاقُ[13]، والسَّماءِ ومَن خلقَها ورفعَها وصيَّرَها للأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيب).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (خيب).
(3) الراغب، المفردات: (خيب).
(4) الخليل، العين: (خيب).
(5) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلام الناس: (خيب).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دسس).
(8) الجوهري، الصحاح: (دسس).
(9) الخليل، العين: (دسس).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (دسس).
(11) الزمخشري، أساس البلاغة: (دسس).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.
(13) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 410 - 411.

سقفًا، والأرضِ ومَن بسَطَها يمينًا وشمالًا ومن كلِّ جانب، ونفسٍ - وهي آدمُ أو كلُّ نفسٍ - ومَن خلقَها وعدَّل خَلْقها، فبيَّن لها ما ينبغي أن تأتيَ أو تذرَ من خيرٍ أو شرٍّ، أو طاعةٍ أو معصية؛ ثم أكَّد أهميَّة تزكيةِ النَّفس، وبيَّنَ فوزَ مَن زكَّى نفسَه، وطهَّرها من الكفر والمعاصي، وأصلحَها بالصّالحات من الأعمال، وخُسرانَ مَنْ غَوىَ، فركبَ المعاصيَ، وتركَ طاعةَ الله[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة افتتاح السّورة بالقسَم:

إقـامـةُ الأدلـةِ على تمامِ عِلْمِهِ وشُمولِ قُدرَتِهِ فـي الآفـاقِ وفي الأنفُس

افتُتحتِ السّورة بهذه الأقسام المُتتابعة؛ لتأكيد مقصدِ هذه السّورة من حثِّ المشركين على الإيمانِ وتركِ الكُفرِ والعِصيان، وهم منكرون، فأُكِّد لهم الكلام، والمقصودُ بالتَّأكيد هو ما في سَوقِ الخبرِ من التَّعريض بالتَّهديد، والوعيدِ بالاستئصال[2]، وذلك بذِكْرِ قصَّةِ ثمودَ وعَقْرِهِم النّاقةَ، واستئصالِ الله تعالى لهم؛ ليَعرِفوا أنَّ عاقبة الكُفرِ واحدة.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ افتتاحِ السّورةِ بالقسَم أنَّهُ سبحانهُ لمّا أثبتَ في سورةِ البلدِ أنَّ الإنسانَ في كَبَدٍ، وختمَها بأنَّ مَن حادَ عن سبيلِهِ كان في النّارِ المُؤصَدَةِ؛ أقسمَ أوَّلَ هذهِ السّورةِ على أنَّ الفاعلَ لذلك هو ﷻ؛ لأنَّهُ يَحولُ بين المرءِ وقلبِهِ، وقد أقسَمَ بما يدلُّ على تمامِ علمِهِ وشُمولِ قدرتِهِ في الآفاقِ؛ عُلْويِّها وسُفْليِّها، والأنفُسِ سَعيدِها وشَقيِّها؛ للحثِّ على العِلمِ بذلك، وعلى شكرِ النِّعم[3].

بلاغةُ الإيجازِ في أسلوبِ القسَم في السّورة:

مـراعـاةُ تَـناسُـبِ فواصلِ السّورةِ من حيث القِصَر

في الأقسام المذكورة في السّورة إيجازٌ، وذلك باختيار الواو؛ لأنَّها

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 453 - 457.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 366.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 70.

يُطَّرَحُ معها إبرازُ الفعل اطِّراحًا كلّيًّا، فكان لها شأنٌ خلافُ شأن الباء؛ إذ أُبرِزَ معها الفعلُ وأُضمِر، فكانت الواوُ قائمةً مقامَ الفعلِ والباءِ سادَّةً مسَدَّهما معًا[1]، والتَّقدير: (أُقسِمُ والشَّمسِ وضُحاها ...)، وغرَضُ الحذفِ هو التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتناسُبِ الفواصلِ من حيث القِصَر.

سرُّ القسَم بالشَّمس:

منافعُ الشَّمسِ كثيرةٌ عظيمة

أقسَمَ ﷻ بالشَّمس في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾؛ للتَّنبيه على عِظَمِ شأنها[2]، وتضمُّنِها للمنافع العظيمة؛ حتَّى يتأمَّلَ المكلَّفُ فيها ويشكرَ الله تعالى عليها؛ لأنَّ الَّذي يُقسِمُ الله تعالى به يحصُلُ له وقعٌ في القلب، فتكون الدَّواعي إلى تأمُّلِه أقوَى. ومن جملة ذلك: أنَّ أهلَ العالَم كانوا كالأموات في اللَّيل، فلمّا ظهَرَ أثرُ الصُّبحِ في المَشرِقِ صار ذلك كالصّوَرِ الَّذي يَنفُخُ قوَّةَ الحياة، فصارت الأمواتُ أحياءً[3].

نكتةُ ابتداء الأقسام بالقسَم بالشَّمس:

حـرُّ الشَّمس مُذكِّرٌ بنارِ الآخرة

ابتُدئتِ السّورة بالقسَم بالشَّمس قبلَ غيرِها من الأقسام؛ لِما فيها من مُلاءَمَةِ خاتمةِ سورةِ البلد؛ إذْ جاءَ فيها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾ [البلد: 19 - 20]، والقسَمُ بالشَّمس مُذكِّرٌ بالنّار[4] بجامعِ الحرارةِ بينهما.

وممّا يُذكَرُ في نُكتةِ ابتداءِ الأقسامِ بالقسَمِ بالشَّمسِ، تسليةُ رسولِ الله ﷺ عن إنكارِ المُنكِرينَ وكُفرِهم بأنَّ هذا الدّينَ سيَنتَشِرُ في العالمِ كانتشارِ نورِ الشَّمسِ في الأُفُقِ[5]. ولأنَّ الشَّمسَ أعظَمُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 487.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 487.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 173 - 174.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 70.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

النَّيِّراتِ التي يصلُ منها نورٌ شديدٌ إلى الأرض؛ وفي هذا إشارةٌ إلى ظُهورِ الإيمانِ بعد الكُفر.

دلالةُ تعريفِ الشَّمس:

الشَّمسُ المعروفةُ عظيمةُ الشَّأن

تعريفُ الشَّمس في قوله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ للعهد، ويُشيرُ إلى الشَّمس المعروفةِ التي تُشرقُ كلَّ يومٍ بحُكْمِ العادةِ الَّتي أجراها اللّه تعالى في هذا الكون.

ويجوزُ أن تكونَ (أل) في الشَّمس للجنسِ باعتبارِ وُجودِ شُموسٍ مُتعدِّدة، وتكونُ الشَّمسُ المعروفةُ لنا إحدى هذه الشُّموس، وقد يبعُد هذا التوجيه بأمارة لفظ القمر وعود الضمير في ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ على الشمس؛ وفي ذلك ترجيح لمعنى العهديّة؛ إذ الحديث عن الشمس المعهودة المعلومة بإشراقها، بوصفها آية للنهار المقابل للقمر، بوصفه آية الليل في النور.

دلالة الواو في ﴿وَضُحَىٰهَا﴾:

ضوءُ الشَّمس مَبعثُ الحياة ومَجلَى الهداية

اختُلِفَ في دلالةِ الواو في قوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾، وما بعدَها من الواوات الواقعةِ بعد الفواصل؛ بينَ أن تكون للقسَم، أو هي للعطف؛ لأنَّ إدخالَ القسَم على القسَم قبلَ تمامِ الأوَّل لا يَجوز[1]. وعلى القول: إنَّ الثّانية للقسم؛ فالقسَمُ بضُحى الشَّمس - وهو ضوءُها وإشراقُها[2] - لِما فيه مِن زيادةِ المُبالغةِ في القسَم بالشَّمس، والمعنى: وضوئِها النّاشئِ عن جِرْمِها العظيمِ الشَّأنِ؛ فالمُقسَمُ به ليس مُطلَقَ الضَّوءِ، بل ضَوءِها إذا أشرقتْ وقامَ سُلطانُها كإشراقِ أنوارِ العُقولِ[3]، وهذا الضَّوء هو مبعَثُ الحياةِ ومَجلَى الهداية، فلا ترى حيًّا أو تُبصر ناميًا لولا ضياء الشَّمس.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 647 - 648.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72 - 73، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 545.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (والضُّحى):

الـضَّـوءُ نتيجة ارتفاعِ الشَّمس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دونَ والضُّحى؛ لأنَّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ من إضافةِ الضُّحى إلى الضَّمير الرّاجعِ إلى الشَّمس في قول الباري ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ولأنَّه إنَّما يكونُ بارتفاعِ الشَّمس[1]. وممّا يُذكَر في إيثارِ الإضافةِ على أنْ يقال: (والضُّحى) رعايةُ تَلاؤُم الفواصل.

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (وضَوئِها):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ دون (وضَوئِها)؛ لِأنَّ التَّعبيرَ بالضُّحى يَشمَلُ الضَّوءَ، ويَدُلُّ على شِدَّتِه إذا استَمكَنَ مِنَ الأرض؛ فالضُّحى تُطلَقُ إذا امتَدَّ النَّهارُ وقَرُبَ أن يَنتَصف، ولِأنَّ التَّعبيرَ بها يَدُلُّ على وقتِ الضُّحى، ويَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ بالضُّحى (النَّهارَ)، ويَكونَ القَسَمُ بالشَّمسِ ونَهارِها، ولِكَونِ الضُّحى إشراقَ الشَّمسِ ووَقتَ قيامِ سُلطانِها، وهو مَقامُ تَمَدُّحٍ، يُقالُ: كأنَّ وجهَهُ شَمسُ الضُّحى. وهذهِ المَعاني لا تَتَأتَّى من التَّعبيرِ بالضَّوءِ؛ لذلك عَبَّرَ بقولِه: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾[2].

دلالةُ الجَمْعِ في القسَمِ بينَ الشَّمسِ وضُحاها:

أقسَمَ ﷻ بالشَّمسِ وضُحاها لكثرةِ ما تعَلَّقَ بها من المَصالِح؛ فإنَّ أهلَ العالَمِ كانوا كالأمواتِ في اللَّيل، فلمّا ظهَرَ أثرُ الصُّبحِ في المَشرِق صارَ ذلك كالصّوْرِ الذي يَنْفخُ قوَّةَ الحياةِ، فصارَتِ الأمواتُ أحياءً، ولا تزالُ تلكَ الحياةُ في الازْديادِ والقوَّةِ والتَّكامُل، ويكونُ غايَةُ كمالِها وقتَ الضَّحوة؛ فهذهِ الحالةُ تشبِهُ أحوالَ يوم القيامةِ، ووَقتُ الضُّحى يُشبِهُ استقرارَ أهلِ الجنَّةِ فيها.[3].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 72.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 286.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 193.

نُكتة القسَمِ بالقمَر دونَ غيره:

القمَرُ شريفُ المَنزِلة كثيرُ المَنافع

أقسَمَ ﷻ بالقمَر في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ دون النَّجم أو الكوكب؛ لتشريفِهِ والتَّنبيهِ على كثرةِ منافعِه، ولمُلاءَمتِه القسَمَ بالشَّمس؛ فهي آيةُ النَّهار، وهو آيةُ اللَّيل، وهو مكتسَبٌ من نورِها، كما أنَّ أنوارَ النُّفوسِ من أنوارِ العُقول[1]. ولأنَّه الآيةُ المُقابلةُ لآيةِ الشَّمسِ، ونورُهُ مكتسَبٌ منها، وهو عندَ اكتمالِه شديدُ الإنارةِ مثلُها، فيكونَ أعظمَ في الاستدلالِ على قُدرةِ الله تعالى، وأنسَبَ بالقسَم.

دلالةُ تعريفِ القمر:

المُقسَمُ به هو القمَرُ المعروف

تعريفُ القمرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ للعهد، وهو القمرُ المُنيرُ المعروفُ، وفي تعريفِه دعوةٌ للإيمانِ بالله ﷻ؛ لأنَّه يُنيرُ ظَلامَ اللَّيلِ كما أنَّ الإيمانَ يُنيرُ القلوبَ؛ فهذا القمرُ الَّذي تُشاهدونَه وتعرِفونَه هو آيةٌ من آياتِ الله تَدُلُّ على إلهيَّتِه سبحانه.

دلالةُ ﴿إِذَا﴾ في ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ وما بعدَها:

تقييدُ الأشياءِ بما بأعظَمِ أحوالِها

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾، وقوله: ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾، وقوله: ﴿إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾؛ في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّة، متعلِّقة بكونٍ هو حال من القمر، ومن النَّهار، ومن اللَّيل، فهو ظرفٌ مستقرٌّ، أي: مُقسِمًا بكلِّ واحدٍ من هذه الثَّلاثة في الحالة الدّالَّة على أعظم أحواله وأشدِّها دلالةً على عظيمِ صُنعِ الله تعالى[2].

وممّا يُذكَرُ في دلالة التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ في هذه المواضعِ دون غيرها: الإشارةُ إلى ثبوتِ هذه المظاهرِ الكونيَّة، وأنَّها محسوسةٌ ومشاهَدةٌ أمامَ أعيُنِ النّاظرينَ لِتستَنْطِقَهُمُ الإيمانَ بالله ﷻ؛ لأنَّه لا يقدِرُ عليها إلّا هو.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 70.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَلَىٰهَا﴾ ماضيًا:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتُّلوِّ في قوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لأنَّ التُّلوَّ يعني المتابعة، يقال: (تلاه): (تبعَهُ متابعةً ليسَ بينهما ما ليسَ منهما)، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ إنَّما يُرادُ به هاهنا الاقتداءُ والمَرتبة، وذلك أنَّه فيما يُقال: (إنَّ القمرَ يقتبسُ النّورَ من الشَّمس، وهو لها بمنزلة الخليفة)[1]. يُؤكِّدُ هذا ما قالَهُ الزَّمخشريُّ في معنى ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ طالعًا عندَ غُروبها آخِذًا من نورِها[2]. وممّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالتُّلوِّ، بيانُ أنَّ القمرَ يجيءُ بعدَ غياب الشَّمسِ في كلِّ وقت.

وجيءَ بالفعل ﴿تَلَىٰهَا﴾ ماضيًا؛ للتَّنبيه على تحقُّق هذه الصّورة البديعة – وهي تَلْوُ القمرِ الشَّمسَ – وكأنَّها ماثلةٌ أمامَ العَين، وهي حقيقةٌ ثابتةٌ مشاهَدةٌ تُنبئُ عن نظامٍ فلكيٍّ مُحكَمٍ بين حركةِ الشَّمس والقمرِ؛ كلٌّ منهما في فلكٍ يَسبَحون.

سرُّ تقييد القسَم بالقمَر بـ ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾:

تَـلْـوُ الـقـمـرِ الشَّمسَ محلُّ العِبْرة والتَّفكُّر

قيَّدَ القرآنُ الكريمُ القسَمَ بالقمر بقوله ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لأنَّ القمرَ يتبعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كثيرةٍ، منها استهلالُه؛ فالهلالُ يظهرُ للنّاظرينَ عقبَ غروبِ الشَّمسِ، ثم يبقى كذلك ثلاثَ ليالٍ، وهو أيضًا يتلو الشَّمسَ حينَ يُقاربُ الابتدارَ، وحين يصيرُ بدرًا، فإذا صارَ بدرًا صارَ تَلْوُهُ الشَّمسَ حقيقةً؛ لأنَّه يَظهرُ عندما تغربُ الشَّمسُ، وقريبًا من غروبها قبلَه أو بعدَه، وهو أيضًا يُضيءُ في أكثرِ ليالي الشَّهر، جعلَه اللّه عِوَضًا عن الشَّمسِ في عِدَّةِ ليالٍ في الإنارة، ولذلك قيَّدَ القسَم بحين تَلْوه.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ تقييدِ القسَم بقوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛الإشارةُ إلى أن تَلْوَه للشَّمس حينئذٍ تظهَرُ منه مظاهرُ التَّلو للنّاظرين، فهذا

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 455.

الزَّمانُ مثل زمانِ الضُّحى في القسَم به، فكان بمنزلةِ قسَمٍ بوقتِ تَلْوِهِ الشَّمسَ، فحصلَ القسَمُ بذاتِ القمرِ وبتَلْوِهِ الشَّمسَ. وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نورَ القمرِ مُستفادٌ من نورِ الشَّمسِ، أي: من توَجُّهِ أشِعَّةِ الشَّمسِ إلى ما يُقابِلُ الأرضَ من القمرِ، وليس نيِّرًا بذاتِهِ، وهذا إعجازٌ علميٌّ من إعجازِ القرآنِ[1].

وممّا يُذكر في دلالةِ التَّقييد بقوله: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أنَّهُ يَصدُقُ على حالَيْنِ؛ حالِ تَلِي طُلوعِهِ طُلوعَ الشَّمسِ أوَّلَ الشَّهرِ، والمرادُ طُلوعُ القمرِ وبُروزُه من الأُفُقِ وما يَليهِ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ لِمُدَّةِ ثلاثِ لَيالٍ يُرى فيها هِلالًا في اللَّيالي الأوَل.

وحالٍ بعدَ غُروبِها لَيلَةَ البَدْرِ، والمقصودُ لَيلَةُ الرّابِعَ عَشَرَ من الشَّهرِ، وذلكَ لِمُقابَلَتِهِ للشَّمسِ وتَمامِ نورِهِ المُستفادِ منه، والبُعدُ بَيْنَهُما نِصفُ دورِ الفَلَك؛ فإذا غَرَبَت طَلَعَ القمرُ من الأُفُقِ الشَّرقيِّ، وبالعكسِ في أكثرِ الأوقات[2].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ ﴿تَلَىٰهَا﴾ إلى القمر:

المرادُ بتَلْوِ القمَر في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾: أنَّ ضوءَهُ يَتبَعُ ضوءَها، أي: إذا ظهَرَ بعدَ مَغيبِها، فكأنَّهُ يَتبَعُها في مكانِها، و"المرادُ بالتَّلْوِ: التَّلْوُ في المرتبةِ لا في الطُّلوعِ في الزَّمانِ المُتأخِّرِ عن طُلوعِها، وعلى هذا يكونُ التَّلْوُ مَجازًا عن التَّأخُّرِ في الرُّتبة"[3].

ظُهورُ ضوءِ القمرِ بعدَ مَغيبِ ضوءِ الشَّمس

دلالةُ ذِكْر (النهار) بعد الشَّمسِ والقمر:

لمّا ذكرَ الآيتين ذكرَ ما هُما آيَتاهُ، وبدأ بهما، وأنَّه لا صلاحَ له إلّا بهما كما أنَّه لا صلاحَ للبدَن إلّا بالنَّفس والعقل؛ فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ الذي هو محلُّ الانتشار في ما جرَت به الأقدارُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 366 - 367.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 237.
(3) حاشية ابن التمجيد على هامش حاشية القونوي 20/ 237.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.

نُكتة القسَم بالنَّهار:

النَّهارُ من آياتِ اللـه ونِـعَـمِـه الكُبرى

أقسَمَ ﷻ بالنَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّه محلُّ انتشار ضوء الشَّمس[1] وإظهارها، وذلك عندَ انتفاخِ النَّهارِ وانبساطِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى تعظيم أمرِ الضّياءِ وإعظامِ قَدْرِ النِّعمةِ فيه، ولَفْتِ أذهاننا إلى أنَّهُ من آياتِ اللّه الكبرى، ونِعَمِه العُظمى[2]؛ لأنَّه محلُّ أسباب توفيرِ المعيشةِ في الغالب للإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ القَسَمِ بالنَّهارِ، تَوبيخُ المُشركينَ وتَبكيتُهم لإشراكِهم باللّه وعِبادتِهم الأصنامَ التي لا تَقدِرُ على إيجادِ الضَّوْءِ فضلًا عن إيجادِ النَّهارِ.

دلالةُ تعريفِ (النَّهار):

تعظيمُ النَّهار وتفخيمُ شأنه

تعريفُ (النَّهار) في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ للجنس المستغرِق لجميع أفرادِه دونَ تخصيصِ نهارٍ معيَّن؛ فكلُّ نهارٍ آيةٌ من آياتِ اللّه، ونعمةٌ عظيمةٌ على عِبادِهِ، ودليلٌ على قُدرتِه ووَحدانيَّتِه.

سرُّ التَّعبير بالنَّهار دون الصُّبح:

انبساطُ النَّهار أنسَبُ بتجلية الشَّمس

عبَّر بالنَّهار دون الصُّبح في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ الصُّبحَ أوَّلُ النَّهار، وهو وقتُ احمرارِ الأُفقِ بحاجب الشَّمس[3]، والقَسَمُ بالنَّهارِ كاملًا أبلَغُ وأحسَنُ؛ إذ تَجليةُ النَّهارِ للشَّمسِ إنَّما تَظهَرُ حَقَّ الظُّهورِ عندَ انبساطِ النَّهارِ واتِّساعِه، والصُّبحُ لا يَفي بذلك؛ فالنَّهارُ يُظهِرُ الشَّمسَ بجِلْيَةٍ عظيمةٍ بَعضُها أعظَمُ مِن بَعضٍ باعتبارِ الطّولِ والقِصَرِ، والصَّحوِ والغَيْمِ، والضَّبابِ والصَّفاءِ والكَدَرِ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 71.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 480، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 67!.
(3) الراغب، المفردات: (صبح).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ ماضيًا:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالتَّجليةِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ دون الإظهار؛ لأنَّ التَّجلية أخَصُّ من مُطلَق الإظهار، وجيء بصيغةِ الماضي في قوله تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ هذه الآيةِ العظيمةِ، وهي تَجليةُ النَّهارِ للشَّمسِ، والتَّنبيهِ على أنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ مُشاهَدةٌ، وقد شاهَدَها ويُشاهِدُها كلُّ عاقلٍ بَصيرٍ. فالإشارةُ إلى أنَّ تَجليةَ النَّهارِ للشَّمسِ نِظامٌ كونيٌّ مُحكَمٌ قَدَّرَهُ اللهُ أزلًا لاستقرارِ النِّظامِ الكونيِّ، ولتيسيرِ أسبابِ المَنفعةِ للناسِ.

تجليةُ النَّهارِ للشَّمسِ آيةٌ معلومةٌ لا يُنكِرُها إلَّا الجاحِدون

نُكتةُ صيغةِ التَّضعيفِ في ﴿جَلَّىٰهَا﴾:

جيءَ بصيغةِ التَّضعيفِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ للمبالغة في هذا الحدَثِ الكونيِّ العظيم، وهو إظهارُ النَّهارِ للشَّمس، بحيث يملأ شعاعُها الآفاقَ، ويُنيرُ الدُّنيا.

إظهارُ النَّهارِ ضوءَ الشَّمسِ حدثٌ عظيم

وفي التَّعبير بالتَّضعيف إشارةٌ إلى السَّعة والامتداد في تجليةِ الشَّمسِ في امتدادِ الكُرةِ الأرضيَّة مع اختلافِ مَواقِعِها من ناحيةِ الشُّروقِ والغُروب.

دلالةُ الإضمارِ دونَ الإظهارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالإضمار دونَ الإظهارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ لتعدُّدِ المُرادِ بالضمير؛ فيَجوزُ أن يَعودَ على الشَّمسِ؛ لأنَّه عندَ انبساطِ النَّهارِ تَجلي الشَّمسُ في ذلك الوقتِ تَمامَ الانجلاءِ. ويَحتَملُ أن يَعودَ على الظُّلمةِ، أو على الأرضِ، أو على الدُّنيا، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ، يقولون: أصبَحَت باردةً، يُريدون الغَداةَ، وأرسَلَت، يُريدون السَّماءَ للعِلمِ بها.

النَّهارُ مُجَلّي الشَّمسِ على الأظهَر

ومن دلالةِ الإضمارِ في قوله: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ تعدُّدُ المُرادِ بالفاعل؛ فيجوزُ أن يعودَ على النَّهار، ويحتملُ أن يكون عائدًا على اللهِ تعالى، والتَّقدير: والنَّهارِ إذا جلَّى اللهُ الشَّمسَ[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.

بلاغةُ المَجاز في إسنادِ التَّجليةِ إلى النَّهار:

انجلاءُ الشَّمسِ يكونُ عندَ انبساطِ النَّهار

أُسندتِ التَّجليةُ إلى النَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّه لمّا كانَ جلاءُ الشَّمسِ واقعًا في النَّهار، وأُسنِدَ فِعلُ التَّجليةِ إليه، كانَ ذلكَ من باب الإسنادِ المَجازيِّ كالإسنادِ في نحو: صامَ نهارَه[1]، ويكونُ المعنى: والنَّهارِ إذا جلَّى الشَّمسَ، أي: أظهَرَها؛ فإنَّها تنجلي وتظهَرُ إذا انبسَطَ النَّهارُ ومضَى منه مدَّة.

بلاغةُ تقييدِ القسَمِ بالنَّهارِ بوَقتِ التَّجلية:

وقتُ التَّجليةِ هو وقتُ كمالِ النَّهارِ والانتفاعِ فيه

تقييدُ القسَم بالنَّهار في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ بقيدِ وقتِ التَّجلية؛ إدماجٌ للمِنَّة في القسَم[2]؛ إذْ بهذه التَّجليةِ تظهَرُ الأشياءُ وتتمايز، ويستعينُ النّاسُ بذلك على إقامة مصالح دنياهُم وقضاءِ حوائجِهم. وهذا القيدُ أيضًا قسَمٌ بالنَّهارِ في أكمَلِ حالاته[3]، وبيانٌ للحالة الَّتي ينطقُ فيها النَّهارُ بتلكَ الحكمةِ الباهرة، والآيةِ الظّاهرة، وهي حالةُ الصَّحو، أمّا يومُ الغيمِ الَّذي لا تظهَرُ فيه الشَّمسُ فحالُهُ أشبَهُ بحالِ اللَّيل[4].

نُكتةُ القسَمِ باللَّيل بعد النَّهار:

اللَّيلُ وقتُ الرّاحةِ والسُّكون

القسَمُ باللَّيل في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ بعدَ القسَم بالنَّهار فيما سبَقَ، فيهِ تَشريفٌ له، وتَنبيهٌ على عَظيم خَلقه وكثرةِ مَنافِعه الدّالَّةِ على تَعظيم الله تعالى؛ فاللَّيلُ مَحلُّ السُّكونِ والانقباض، فيكونُ لِباسًا للنّاس، وظَرفًا لِراحتهم واستعادةِ قواهم؛ ليواصِلوا أعمالَهم في النَّهار، ولو جُعِلَ عليهمُ النَّهارُ سَرمدًا لَما طابَ لهم عَيْشٌ، ولا استقرَّت لهم حياةٌ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 367.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 367.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.

عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 72].

دلالةُ تعريفِ (اللَّيل):

كلُّ ليلٍ في الكرةِ الأرضيَّةِ مُندرجٌ ضمنَ القسَم

تعريفُ (اللَّيلِ) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميع أفراده، فالجِنسُ المُسمَّى باللَّيلِ كثيرُ المَنافِعِ، وفي كُلِّ فردٍ من أفرادِه دليلٌ من دَلائلِ قُدرةِ الله تعالى، وتَنبيهٌ على أنَّ انتظامَ العالَمِ بيدِه ﷻ.

وفيه إشارةٌ إلى اندِراجِ كُلِّ لَيلٍ في الكُرَةِ الأرضيَّةِ تحتَ هذا المُسمَّى لِوُجودِ اللَّيلِ في نِصفِ الكُرَةِ الأرضيَّةِ تقريبًا ويُقابِلُه النَّهارُ، ووُجودِ النَّهارِ في النِّصفِ الآخَرِ ويُقابِلُه اللَّيلُ؛ فالتَّعريفُ شاملٌ لَهما.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ مضارعًا:

اللَّيلُ يُذهِبُ الضّياءَ شيئًا فشيئًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّغشيةِ دون التَّغطيةِ في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾؛ لأنَّ التَّغشيةَ أخَصُّ من التَّغطية، فهيَ تَغطيةٌ مُبالَغٌ فيها، ولِذلك كانت الغاشيةُ من أسماءِ يومِ القيامةِ، وقد عُبِّر بالتَّغشيةِ هنا للدَّلالةِ على المُبالغةِ في تَغطيةِ اللَّيلِ للشَّمس؛ بحيثُ يذهبُ ضوءُها حين تغيبُ، فتمتدُّ ظلالُ الأرضِ على وجهِها المُماسِّ لنا، فيأخذُ الأفقُ الشَّرقيُّ في الإظلام، ويمتدُّ ذلك الظَّلامُ بحسب طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه[1].

وعُبِّر بالمضارع، ولم يُعبَّر بالماضي كما في النَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ لا يُذهِبُ الضّياءَ مرَّةً واحدةً، بل شيئًا فشيئًا، ولا ينفكُّ عن نور، بخِلافِ النَّهار؛ فإنَّه إذا أبدَى الشَّمسَ، ولم يكُن غَيمٌ ولا كَدَرٌ؛ جلَّى الشَّمسَ في آنٍ واحدٍ، فلم يبقَ معهُ ظَلامٌ بوَجه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 438.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في قوله: ﴿يَغْشَىٰهَا﴾؛ التَّنبيهُ على استواءِ الأزمنةِ عنده تعالى، أو لأنَّ المُرادَ باللَّيلِ الظُّلمةُ الحادثةُ بعدَمِ الضَّوءِ لا العَدَمِ الأصليِّ والظُّلمةِ الأصليَّة؛ فإنَّ هذه أظهَرُ في الدَّلالةِ على القُدرةِ، وهي مُستقبَلةٌ بالنِّسبةِ لما قبلَها، فلا بُدَّ من تَغييرِ التَّعبيرِ؛ ليَدُلَّ على المراد[1]. أو لقلَّةِ أوقاتِ الظُّلمة، والمضارعُ يُفيدُ لحاقَ الشَّيءِ وعروضَهُ متأخِّرًا عمّا هو أصلٌ في نفسه، أمّا النَّهارُ فإنَّه يُجلّي الشَّمسَ دائمًا من أوَّلِه إلى آخِره، وذلك شأنٌ لهُ في ذاتِه، ولا ينفكُّ عنه إلّا لعارِضٍ، كالغيمِ أو الكُسوفِ قليلِ العُروض، ولهذا عُبِّر في جانبِهِ بالماضي المُفيدِ لوقوعِ المعنى من فاعله، بدونِ إفادةِ أنَّه ممّا ينفكُّ عنه[2]. ولم يقُلْ غشّاها أيضًا؛ لأنَّهُ يَحتاجُ إلى حذفِ أحدِ المَفعولَين لتعَدّيهِ إليهما؛ فإنَّه يُقال: غشَّيتُه كذا[3].

وممّا يُذكرُ في دَلالةِ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ، رِعايةُ الفاصِلةِ؛ لأنَّ الفواصِلَ في هذهِ السّورةِ تَرَتَّبَت على ألفٍ وهاءٍ للمُؤنَّث، ولو أُتيَ بالماضي - كالَّذي قبلَه وبعدَه - لَكان يكونُ التَّركيبُ: إذا غَشيَها، فتَفوتُ الفاصِلةُ؛ وهي مقصودة[4].

دلالةُ الإضمارِ دونَ الإظهارِ في قولِهِ: ﴿يَغْشَىٰهَا﴾:

الإضمار لتكوين صـورة واسعـة لكل الموجودات الـتـي يغشاها الـلّـيـل، ومنها الشّمس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرُ بالإضمارِ دونَ الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ لأنَّ مرجعَ الضَّمير في قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ متعدِّدٌ، فيحتملُ أن يعودَ للشَّمس، والمعنى: واللَّيلِ إذا يغشى الشَّمسَ، فبدُخولِه تغيبُ، وتُظلمُ الآفاقُ[5]. ويحتملُ أن يعود على الدُّنيا، والمعنى: يغشى الدُّنيا بالظَّلام، فتُظلمُ الآفاقُ، فالضَّميرُ راجعٌ إلى غيرِ مذكورٍ[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 358.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 30/ 141.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 486/ 10.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.

والَّذي تقتضيه الفصاحةُ أنَّ الضَّمائرَ كلَّها إلى قوله: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ عائدةٌ على الشَّمس، وكما أنَّ النَّهارَ جلّاها كان النَّهارُ هو الَّذي يغشاها، وهذه الأقسامُ بالشَّمس في الحقيقة بحسب أوصافٍ أربعة: ضوئِها عند ارتفاعِ النَّهار وقتَ انتشارِ الحيوان وطلبِ المعاش، وتَلْوِ القمرِ لها بأخذِهِ الضَّوءَ، وتكامُلِ طُلوعِها وبُروزِها، وغَيبوبَتِها بمجيء اللَّيل، ومَن تأمَّلَ قليلًا في عظَمَةِ الشَّمس، ثمَّ شاهدَ بعَينِ عَقلِهِ فيها أثرَ المَصنوعيَّةِ والمَخلوقيَّة، من المِقدارِ المُتناهي، والتَّركُّبِ من الأجزاء؛ انتقلَ منهُ إلى عظَمَةِ خالقِها؛ فسبحانه ما أعظمَ شأنَه[1].

بلاغةُ المَجاز في إسنادِ التَّغشيةِ إلى اللَّيل:

تظهرُ بلاغةُ المجاز في إسناد التَّغشيةِ إلى اللَّيل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ والمعنى: واللَّيلِ إذا يغشَى الشَّمسَ، فبدُخولِه تغيبُ، وتُظلِمُ الآفاقُ، ونسبةُ ذلك إلى اللَّيل مجاز[2]؛ فاللَّيلُ ليس بمُغَطٍّ للشَّمس على الحقيقة، ولكنَّه مُسبَّبٌ عن غَشْيِ نِصْفِ الكرةِ الأرضيَّة لقُرصِ الشَّمس ابتداءً من وقتِ الغروب، وهو زمنٌ لذلك الغَشْيِ، فإسنادُ الغَشْيِ إلى اللَّيل مجازٌ عقليٌّ، من إسنادِ الفعلِ إلى زَمنِه أو إلى مُسبَّبه بفتح الباء، والغاشي في الحقيقة هو تكويرُ الأرض ودوَرانُها تجاهَ مظهَرِ الشَّمس، وهي الدَّورة اليوميَّة[3].

اللَّيلُ زمنُ التَّغشيةِ أو مُسبَّبُها

نُكتةُ تقييدِ القسَم باللَّيل بوقتِ التَّغشية:

تقييدُ القسَم باللَّيل بوقتِ تغشيَتِه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾؛ تذكيرٌ بالعِبرَة بحُدوثِ حالةِ الظُّلمَةِ بعدَ حالةِ النّور[4]. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللَّيل يطرأ على الشَّمس فيُذهب ضوءَها،

في حُدوثِ الظُّلمة بعد النّورِ عِبْرةٌ عظيمة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 175، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 486، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 358.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.

ويُحيلُ نورَ العالَمِ ظلامًا، فهو على جليلِ نفعِهِ وعظيمِ فائدَتِه لا يُتَّخَذُ إلهًا؛ لأنَّ الإله لا يَحول ولا يَزول، ولا يَعتريهِ تغيُّرٌ ولا أُفول؛ وفيه رَدعٌ وتأنيبٌ للمشركين على تأليهِهِ وعِبادته[1].

بلاغةُ ترتيبِ الأقسام المذكورة:

الإسلامُ نورٌ وهدًى للعالمين

ابتُدئ بالشَّمس في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لمُناسبةِ المَقام إيماءً للتَّنويه بالإسلام؛ لأنَّ هَدْيَهُ كنور الشَّمس لا يترُكُ للضَّلال مسلكًا، وفيه إشارةٌ إلى الوعد بانتشارِهِ في العالم كانتشار نورِ الشَّمس في الأفُق، وأُتبِعَ بالقمر في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؛ لأنَّه يُنير في الظَّلام كما أنارَ الإسلامُ في ابتداء ظُهورِه في ظُلمة الشِّرك، ثم ذُكِرَ النَّهارُ واللَّيلُ معه في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾؛ لأنَّهما مَثَلٌ لوضوحِ الإسلام بعدَ ضلالةِ الشِّركة[2].

وممّا يُذكَر في بلاغةِ ترتيبِ الأقسام المذكورة أنَّ هذه الأقسامَ الأربعةَ ليستْ إلّا بالشَّمس في الحقيقة، لكنْ بحسَبِ أوصافٍ أربعة: أوَّلُها: الضَّوءُ الحاصِلُ عندَ ارتفاعِ النَّهار، وهو الوقتُ الَّذي تكتملُ فيه مصالحُ العبادِ في المَعاش، وثانيها: تَلْوُ القمرِ لها، وأخذُه الضَّوءَ عنها، وثالثُها: تَكامُلُ طُلوعِها وبُروزِها بمَجيءِ النَّهار، ورابعُها: وجودُ خلافِ ذلك بمَجيءِ اللَّيل، وكلُّ ذلك يدلُّ على عَظَمةِ خالِقِها ﷻ[3].

نُكتةُ القسَم بالسَّماء بعد الأقسامِ السّابقة:

التَّرقّي في كمالِ الخَلْقِ وعجائب الصَّنعة

بعدَما ذكرَ ﷻ آيتي الشَّمس والقمر، وذكرَ محلَّ أثرِهما - وهو النَّهار واللَّيل - ذكرَ محلَّ الكلِّ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، أي: الَّتي هي محلُّ ذلك كلِّه، كما أنَّ الأبدانَ محلُّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 194.

النُّفوس، والنُّفوس مَركَبُ العقول[1]. وفي القسَم بالسَّماء تنبيهٌ على عجائب الصَّنعة فيها[2].

وممّا يُذكرُ في سِرِّ القَسَم بالسَّماءِ بعدَ الأقسامِ السّابقة، أنَّه سبحانه لمّا وصَفَ الشَّمسَ بالصِّفاتِ الأربعةِ الدّالَّةِ على عَظَمَتِها أتْبَعَ ذلك ببيانِ ما يدلُّ على حُدوثِها، وحُدوثِ جميعِ الأجرامِ السَّماويَّة؛ فنَبَّهَ بهذا على أنَّ الخالقَ هو اللّه، ولا يجوزُ أن تُعبَدَ من دونِه[3].

دلالةُ تعريفِ السَّماء وإفرادِها:

جميعُ السَّماوات محلُّ عِبْرة

تعريفُ السَّماء في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ للجنس الشّامل لجميع أفراد السَّماوات، فهي كلُّها محلُّ عِظَةٍ وعِبرة، ودليلٌ باهرٌ على قُدرته تعالى. وإنَّما أوثِرَ الإفرادُ على الجمع؛ لموافقةِ إفرادِ الأرض، ولدلالةِ تعريفِ الجنسِ على إرادةِ جميعِ السَّماوات.

دلالةُ الواو في ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾:

ذِكرُ المبدِعِ بعد ذِكرِ آثارِ إبداعِه

الواو في قوله تبارك شأنه: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ للقسَم، فتفيدُ أنَّ (ما بناها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياء المعظَّمةِ بهذا القسَم. ومن لطائفِ القسَم بـ ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ على أنَّ (ما) موصولةٌ كما هو الظّاهر: أنَّه لمّا كانت السَّماءُ والأرضُ ثابتتين حتى ظنَّ مَن ظنَّ أنَّهما قديمتان؛ ذُكِرَ مع الإقسام بهما بانيهما ومُبدِعُهُما[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (ما):

مُبدِعُ السَّماء عظيمُ الشَّأن

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ لتعدُّدِ معناها؛ فيجوزُ أن تكون مصدريَّةً والتَّقدير: السَّماءُ وبُنيانها، ويجوزُ أن تكون موصولةً مع أنَّها في الأصل موضوعةٌ لِما لا يَعقل، وإنَّما أوثِرَت على (مَنْ) الموضوعة لِما يَعقل؛ لإرادة معنى الوصفيَّة؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 195.
(4) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 19.

لقصدِ التَّفخيم كأنَّه قيل: والقادرِ العظيمِ الشَّأنِ الَّذي بَناها، ودلَّ على وجودِه وكمالِ قُدرتهِ بناؤُها[1].

ويجوزُ أن يكون التَّعبيرُ بها على أنَّها بمعنى (من)، وتقديرُ الكلام: ومَن بَناها، كما وردَ ذلك في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: 3]، ويكونُ توجيهُ ذلك على معنى المصدريَّة؛ كأنَّه قال: والسَّماء ومَنْ بَناها.

وذكرَ ابنُ عطيَّة أنَّ (ما) في الآية مُحتملةٌ للقولين، وعلَّلَ ذلك بأنَّ (ما) تقعُ عامَّةً لِمَنْ يَعقِلُ ولِمَنْ لا يَعقِل؛ فيَجيءُ القسَمُ بنفسِهِ تعالى.

ويجوزُ أن يكونَ إيثارُ (ما)؛ لأنَّ الخِطابَ موَجَّهٌ إلى قومٍ لا يَعرفونَ اللّٰه بجليلِ صِفاته، والقصدُ منه أن يَنظُروا في هذا الكونِ نظرةَ مَن يطلُبُ للأثر مؤثِّرًا، فينتقلوا من ذلك إلى معرفتهِ تعالى، فعبَّرَ تعالى عن نفسهِ بلفظ (ما) الَّتي هي الغايةُ في الإبهام[2].

واصطفاءُ (ما) أيضًا لبيانِ جَهْلِ المُشركين في مساواتهِم الخالقَ بالمخلوق؛ فجعلوا له شريكًا منَ الجَماداتِ الَّتي عبَدوها معَ ما لهُ من صفاتِ الكمالِ الَّتي ليسَ لغيره ما يُداني شيئًا منها، زجرًا لهم بالإشارةِ والإيماءِ عن ذلك[3].

سِرُّ التَّعبير بفِعل البناءِ ماضيًا:

خلقُ السَّماءِ مُحكَمٌ مُتقَن

في التَّعبير بالبناء في قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ تشبيهٌ لرفعِ السَّماء فوق الأرض بالبناء[4]، أي: ومَن رفعَها، وصيَّرَها بما فيها من الكواكب كالسَّقف أو القُبَّة المحكَمة الزِّينةِ المحيطة بنا[5]. وفي ذلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 167.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 72 - 73.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 481.

إشارةٌ إلى ما انطوَى عليه رَفعُها وتسويتُها من بارعِ الحِكمةِ وتَمامِ القُدرة، وأنَّ لها صانعًا حكيمًا قد أحكَمَ وضعَها، وأجادَ تَقديرَها، فإنَّه شَدَّ هذه الكَواكِبَ بعضَها إلى بعضٍ برباطِ الجاذبيَّةِ العامَّة كما تُربَطُ أجزاءُ البناءِ الواحدِ بما يوضَع بينها حتَّى يتماسك[1]. وفي لَفظِ البناءِ إشارةٌ إلى ما اكتشفَه العُلماءُ من وُجودِ مخلوقاتٍ في هذا الفضاءِ لها دَورٌ أساسيٌّ في استِقرارِ النِّظامِ الكَونيِّ، وليس كما كان يُقالُ قَديمًا بوجودِ فراغٍ بين السَّماءِ والأرض.

خلقُ السَّماءِ آيةٌ مشاهَدةٌ لكلِّ بصير

وجيءَ بفِعلِ البناءِ على صيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ خَلقَ السَّماءِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومَضى قبل خَلقِهم بأزمنةٍ مُتطاولةٍ، وهو آيةٌ ثابتةٌ في الآفاقِ يُعاينُها كلُّ بَصيرٍ، ويَعتَبِرُ بها كلُّ عاقلٍ حَكيم. وفي التَّعبيرِ بالماضي أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ خَلقَ السَّماءِ دليلٌ على وحدانيَّته، وفي ذلك تَوبيخٌ للمُشركين لِعبادتِهم الأصنامَ التي لا تَملِكُ من أمرِهم شيئًا.

سِرُّ تقديم القسَم بالسَّماءِ على الأرض:

طَحوُ الأرضِ كان بعدَ بناءِ السَّماء

تقديمُ القسَم بالسَّماء وما بناها على القسَم بالأرض وما طَحاها؛ لأنَّ طحوَ الأرضِ متأخِّر عن بناء السَّماء، بدليل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ [النازعات: 27 - 30][2].

ولا تعارُضَ في تقديمِ القسَم بالسَّماءِ على الأرض مع بعض الآيات التي تُفيد تقديمَ الأرض على السَّماء؛ لأنَّ اللَّه تعالى خلقَ الأرضَ أوَّلًا قبلَ السَّماء غيرَ مَدحوَّةٍ؛ ثمَّ استوَى إلى السَّماء فسَوّاهُنَّ سبعًا في يومين، ثمَّ دحا الأرضَ بعد ذلك، وجعلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ، وغيرَ ذلك؛ فدَحْوُ الأرضِ وطَحْوُها بعَد خلقِ السَّماء[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 368.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 176.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 10/ 14.

بلاغةُ القسَمِ بالأرض:

تعظيمُ شأنِها والتَّنبيهُ على بعضِ عجائبِ صُنعها

القسَمُ بالأرض في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ لتعظيم شأنِها وتفخيمِه، والتَّنبيهِ على ما فيها من عجائبِ الصَّنعةِ الدّالَّة عليه[1]. ومن لطائفِ هذا القسَم: الإشارةُ إلى العالمِ السُّفليِّ بعدَ الإشارة إلى العالم العُلويِّ[2].

دلالةُ تعريفِ (الأرض):

الأرضُ كلُّها من مخلوقاتِ الله العجيبة

تعريفُ (الأرض) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميع أفرادِها، فهي كلُّها عظيمةُ الشَّأن، كثيرةُ المنافع، وفيها دليلٌ ظاهرٌ على قُدرةِ الله ﷻ.

سرُّ إفرادِ (الأرضِ) دون جَمعِها:

ألفاظُ السّورةِ خفيفةٌ على اللّسان

أُفرِدَت (الأرضُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ لأنَّها عالَمٌ واحدٌ، ولأنَّ جَمعَها: (أرَضونَ) و(أرَضاتٌ) و(أُروضٌ)، والنُّطْقُ به ثقيلٌ، ولهذا لمّا أُريدَ ذِكرُ جمعِ الأرَضينَ، قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12]، وللإشارةِ إلى أنَّ الأرضَ تختلفُ عن السَّماءِ في طبقاتها؛ فطوابقُ السَّماءِ مُتعدِّدةٌ وظاهرةٌ؛ بخِلافِ الأرض.

دلالة الواو في ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾:

تعظيمُ المخلوقِ تمهيدٌ لتعظيمِ الخالق

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ للقسَم، فتُفيدُ أنَّ (ما طحاها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياء المُعظَّمة بهذا القسَم؛ لأنَّ الواوَ من معانيها الجَمعُ، والمرادُ جَمعُ هذه الأشياءِ المُقسَم بها معَ بعضِها، ومن لَطائفِ هذا القَسَم: الانتقالُ من تَعظيمِ المخلوقِ إلى تَعظيمِ الخالِقِ، وما تَعظيمُ المخلوقِ إلّا وسيلةٌ لِتَعظيمِ خالِقِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(ما) دون (من) في ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 75.

﴿طَحَىٰهَا﴾ لتعدُّدِ معناها؛ فيحتملُ أن تكون مصدريَّةً والمعنى: وطَحْوِها[1]، فيكونُ القسَمُ بأمرٍ من آثارِ قُدرةِ الله تعالى، وهو تسويتُهُ الأرضَ[2]، ويحتملُ أن تكون موصولةً، وهي في الأصلِ موضوعةٌ لِما لا يَعقِل، وإنَّما أوثِرَت على (مَنْ) الموضوعةِ لِما يَعقِل؛ لإرادةِ معنى الوصفيَّة، كأنَّه قيل: والشَّيء القادِر الَّذي بَسَطَها، ودلَّ على وُجودِه وكمالِ قُدرَته بسطُها[3].

العظيمُ سبحانه باسطُ الأرض

سِرُّ التَّعبيرِ بالطَّحْوِ فِعلًا ماضيًا:

آثرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿طَحَىٰهَا﴾ دون غيره؛ لأنَّه لفظٌ يدلُّ على معنى البسط؛ أي: بسَطَها، وهو أعمُّ من الدَّحو؛ لأنَّ المُرادَ من قوله: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ الذي بسَطَها من كلِّ جانب، وهذا ما عليه جمهورُ المُفسِّرين[4].

طَحْوُ الأرضِ آيةٌ ظاهرةٌ منذ أزمانٍ مُتطاولة

وجيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ طحوَ الأرض أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى قبلَ خَلقِهم بأزمنةٍ متطاولة، وهو آيةٌ مُثبَتةٌ في الآفاق، لا تَخفَى على ذي عَقلٍ وبَصيرة. وفيه أيضًا الإشارةُ إلى كمالِ الطَّحو، وأنَّ الأرضَ وُضِعَ فيها كلُّ احتياجاتِ البَشر مع كَثرتِهم وازديادِ أعدادِهم قبلَ أن يُخلَقوا، ولا يكون ذلك إلّا مِن العَليمِ الخَبير.

نُكتة القسَم بالنَّفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

أقسَمَ المَولَى سبحانه بالنَّفسِ في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ لتعظيمِها وتشريفِها، ولِما فيها من عجائبِ الصَّنعةِ الدّالَّة عليه ﷻ[5]. وفي القسَمِ بها أيضًا بعد الأقسام السّابقة استدلالٌ على

عظَمَةُ تسويةِ الأنفُسِ في الدَّلالةِ على الله تعالى

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 74.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 449.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.

الغائب بالشّاهد، والشّاهدُ ليس إلّا العالَم الجسمانيَّ؛ وهو قسمان: بسيط، ومركَّب، والبسيطُ قسمان: العلويَّةُ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والسُّفليَّةُ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، والمركَّبُ هو أقسام، وأشرَفُها ذواتُ الأنفُسِ، وإليه الإشارة بهذه الآية[1].

نكتةُ تنكير لفظ (نفس):

عَـظـمَـةُ شـأنِ نفسِ آدمَ عليه السلام

آثرَ القرآنُ تنكيرَ النَّفسِ في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ دون تعريفِها كما سبقَ مع الأقسام السّابقةِ للتَّفخيم، على أنَّ المُرادَ نفسُ آدمَ عليه السلام، كأنَّه قيل: وواحدةٍ من النُّفوس.

أو للتَّكثيرِ كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: 14]، وذلك لأنَّ الحيوانَ أنواعٌ لا يُحصي عددَها إلّا الله، ولكلِّ نوعٍ نفسٌ مخصوصةٌ متميِّزةٌ عن سائرها بالفضل المقوِّم لماهيَّته، والخَواصِّ اللّازمةِ لذلك الفصل، فمَن الذي يُحيط عقلُه بالقليل من خواصِّ هذا الحيوان، فضلًا عن التَّوغُّل في بحارِ أسرارِ الله سبحانه وتعالى. والتَّكثيرُ هو الأنسبُ بما بعده[2] من الآيات لِما فيها من الأوصاف التي لا تكون إلّا للجنس، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ كيف يقتضي التَّغايرَ في المزكّي وفي المُدَسّي[3].

براعةُ إيثارِ إفرادِ النَّفسِ على جمعِها:

تسويةُ النُّفوسِ مَـهـمـا كـثُـرَتْ يسيرةٌ على الله تعالى

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإفراد في النَّفس دون جَمعِها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾؛ لاحتمالِ أن يكونَ المُرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام، وعلى هذا؛ فإفرادُها ظاهر، وإنْ كان المرادُ بها جميعَ النُّفوس - بحسب ما هو الظّاهر - فالإفرادُ للإشارة إلى أنَّ تسوية هذه النُّفوسِ جميعًا يسيرةٌ عليه تعالى، وكأنَّها نفسٌ واحدةٌ، وذلك كقوله سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 176.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 488.

دلالة الواو في ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

تعظيمُ مُبدِعِ النُّفوس أثرٌ من آثارِ التَّدبُّر في أحوالها

الواو في قولهِ ﷻ: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ للقسَم، فتفيدُ أنَّ (ما سوّاها) مُقسَمٌ به أيضًا، وداخلٌ في جملةِ الأشياءِ المعظَّمة بالقسَم. ومن لطائفِ هذا القسَم: الانتقالُ من تدبُّر أمرِ النُّفوس إلى تعظيم مُبدِعها ﷻ؛ للسَّعي في إصلاح شأنها[1]، ولأنَّ حدوثَ النَّفس غيرُ مشهود، حتَّى ظنَّ بعضُهم قِدَمَها، فذُكِرَ مع الإقسام بها مُسوّيها وفاطرُها[2]؛ للدَّلالةِ على حُدوثِها، وأنَّها آيةٌ تدلُّ على الخالقِ سبحانه، وفي ذلك توبيخٌ للمشركين لعبادتهم الأصنام.

سِرُّ التَّعبير بـ(ما) دون (من) في قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾:

العظيمُ سبحانه مُسَوّي النُّفوس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ (ما) دون (من) في قوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ لتعدُّدِ المُراد بها، ويحتملُ أن تكون مصدريَّةً والمعنى: وتسْويَتِها[3]، فيكونُ القسَمُ بأمرٍ من آثارِ قُدرةِ الله تعالى، وهو تسويتُه الإنسانَ[4]. ويحتملُ أن تكون موصولةً، وهي في الأصل موضوعةٌ لِما لا يعقل، وإنَّما أوثِرَتْ على (مَنْ) الموضوعة لِما يعقِل؛ لإرادةِ معنَى الوصفيَّة، كأنَّه قيل: والشَّيءِ القادرِ العظيم الَّذي سوّاها[5].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿سَوَّىٰهَا﴾ ماضيًا مضعَّفًا:

كمال التَّسويةِ وجَمالها في خَلْقِ الإنسانِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالتَّسوية في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ دون الخَلْق؛ لأنَّ التَّسوية مرحلةٌ تاليةٌ للخَلْق؛ فإذا خُلِقَت النَّفسُ على الجسد، فتسويَتُها تعديلُ أعضائها على ما يَشهدُ به علمُ التَّشريح، وإنْ حمَلْناها على القوَّةِ المُدبِّرة؛ فتسويَتُها إعطاؤها القوَّةَ الكثيرة؛ كالقوَّةِ السّامعةِ والباصرةِ والمُفكِّرة[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 75.
(2) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 19.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 315، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 195.

وجيء بالفعل ماضيًا في قوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ تسويَتَهُ قد مضَت وتحقَّقت، ولا سيَّما إنْ كان المرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام. ودلَّ التَّضعيفُ في الفعل ﴿سَوَّىٰهَا﴾ على كمالِ التَّسويةِ وجَمالِها في خَلْقِ الإنسانِ على أحسَنِ تقويمٍ بإكمالِ عَقْلِه ونَظَرِه.

سِرُّ تأخيرِ القسَم بالنَّفس وما سوّاها:

شـرفُ النَّـفسِ بخِدمةِ الأكـوانِ لها

أُخِّرَ القسَمُ بالنَّفسِ عمّا قبلها - معَ شرَفِها وفخامةِ شأنِها - لطولِ الجُملة؛ فإنَّ قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ الآية، بيانٌ لأحوالها[1]؛ ففي تقديمِها إخلالٌ بجزالةِ النَّظم. ومِمّا يُذكَرُ في سَرِّ تأخيرِ القَسَمِ بالنَّفسِ وتَسويَتِها عَمّا قبلَها من الأقسامِ أنَّ ما سَبقَها من المُحسوساتِ، وأعظَمُها الشَّمسُ مع أوصافِها المذكورةِ في الآياتِ، وهي دالَّةٌ على عَظمةِ الخالِق، ثُمَّ تَرَقَّى الأسلوبُ القُرآنيُّ بنَقلِ العَقلِ من عالَمِ المُحسوساتِ إلى المَعنويّاتِ والمَكنوناتِ في خَلقِ النَّفسِ؛ فكانَ ما سَبقَ بمثابةِ التَّمهيدِ للوصولِ إلى المَقصود.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾:

رحـمـةُ اللـه بـعـبـادِهِ قبلَ التَّكليف

الظّاهرُ أنَّ الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ لعَطفِ هذه الجملةِ على (سوّاها)[2]، فإلهامُ الفُجورِ والتَّقوى مَعطوفٌ على التَّسويةِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى رَحمةِ الله تعالى بعبادِه، فهو كَمَّل خَلقَهُم أوَّلًا - ومِن جُملةِ ذلك تَزيينُهم بالعُقولِ - ثُمَّ ألهَمَهُم الفُجورَ والتَّقوى.

وتَدُلُّ الفاءُ أيضًا على التَّعقيبِ لعدمِ الاعتدادِ بما بينَ التَّسويةِ والإلهامِ لانتفاءِ الفَهمِ حينئذ؛ أو لأنَّ المُسبَّبَ كالمُتَعقِّبِ للسَّببِ، وإن تَراخى عنه لِفقدانِ شرطٍ أو وجودِ مانعٍ.

ويَجوزُ أن تُحمَلَ الفاءُ على السَّببيَّةِ لا التَّعقيبِ؛ لكنَّ المُسبَّبَ

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.

يَتراخَى عنه لِفَقدِ شرطِه، والحاصلُ أنَّ السَّببيَّة ناقصة؛ فلا محذورَ في التَّخلُّف، وما نحنُ فيه كذلك؛ فلا إشكالَ بأنَّ التَّسوية قبلَ نفخِ الرّوح، والإلهامَ بعدَها بزَمَنٍ طويل[1].

بلاغةُ التَّعبير بالإلهام في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾:

شُمولُ الإلهامِ جميعَ علومِ الإنسان

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإلهام دون التَّعبير بالتَّعريف في قولِه تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ الإلهامَ أعمُّ مِن التَّعريف؛ فيندرجُ تحته التَّعريفُ والتَّبيين؛ لأنَّ الإلهامَ هو أن يوقِع اللّه في قلبِ العبدِ شيئًا، وإذا أوقعَ في قلبه شيئًا فقد ألزَمَه إيّاه. وأصلُ معنى الإلهام مِن قولهم: لهمَ الشَّيءَ والتَهَمَه إذا ابتلَعَه، وألهَمْتُهُ ذلك الشَّيءَ، أي: أبلعتُه، وهذا هو الأصلُ، ثم استُعمِلَ ذلك فيما يقذِفُهُ اللّه تعالى في قلبِ العبد؛ لأنَّه كالإبلاغ[2].

وممّا يُذكر في دلالةِ التَّعبيرِ بالإلهام دلالتهُ على جَعلِ النَّفسِ عارفةً بالخير والشَّرِّ، مستعدَّةً ومتهيِّئةً لكلٍّ منهُما[3]، وليَشمَلَ جميعَ عُلوم الإنسانِ المتعلِّقةَ به مِن ناحيةِ الخَلْقِ والتَّكوينِ والتَّعليم، ولذلك فهذا اللَّفظُ له خاصّيَّةٌ تُميِّزُه من غيرِه بأنَّه مِن فرائدِ التَّعبيرِ القُرآني، ولذلك يقولُ ابنُ عاشور: "هذا اللَّفظُ إن لَم يكُنْ مِن مُبتكراتِ القرآنِ يَكُنْ ممّا أحياهُ القرآن؛ لأنَّه اسمٌ دقيقُ الدَّلالة على المعاني النَّفسيَّة، وقليلُ رواجِ أمثالِ ذلك في اللُّغةِ قبلَ الإسلام لقلَّةِ خُطورِ مثلِ تلكَ المعاني في مخاطباتِ عامَّةِ العرب"[4].

بلاغةُ التَّعبير بالماضي في ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾:

الشَّقاءُ والسَّعادةُ مقدَّران مكتوبان

عُبِّر بصيغة الماضي في قول الباري ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ هذا الإلهامَ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ، وجرَتْ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 293.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

به مقاديرُ اللَّه ﷻ، فمَن كُتبَ اسمُهُ في سِجِلِّ السُّعداء كان سعيدًا، ومَن كُتبَ اسمُهُ في سِجِلِّ الأشقياء كان شقيًّا.

دلالة الإضافة في ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾:

اختيارُ الخير أو الشَّرِّ منسوبٌ للعبد

أوثرتِ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ دون أن يقال: (الفجور والتَّقوى)؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك كلَّه منسوبٌ إلى النَّفس، ومكتوبٌ عليها، وإنْ كان بخَلْقِه وتقديره تعالى؛ لأنَّه أودعَها قوَّة، وجعلَ لها اختيارًا صالحًا لكلٍّ من النَّجدَين، وأوضحَ أمرَ النَّجدَين بقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10]، وعلى لسانِ رسوله ﷺ بما وهبَهُ لها من الفطرة القويمة، وأخفَى عنها سرَّ القضاء والقدر وعِلْمَ العاقبةِ، فأقامَ بذلك عليها الحجَّة، وأوضح المحَجَّة[1]. فضلًا عمّا في الإضافة من رعايةٍ للفواصل[2].

سرُّ التَّعبير بالفُجور دون الكفر:

عُبِّر بالفُجور دون الكفر في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّه أعمُّ من الكفر، والمرادُ به هنا: انبعاثُها في المَيل معَ دواعي الشَّهوات وعدمِ الخوفِ الحاملِ على خرقِ سياج الشَّريعة[3].

سرُّ تقديم الفُجورِ على التَّقوى:

رعايةُ أحوالِ المُخاطَبين وهُمُ المشركون، وأكثرُ أعمالِهم الفجور

تقديمُ الفُجورِ على التَّقوى في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ إلهامَهُ بهذا المعنى من مبادئ تجنُّبه، وهو تخلية؛ والتَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحلية[4]، ولرعايةِ الفواصل[5]، ولرعايةِ أحوال المخاطَبين بهذه السّورة، وهُمُ المشركون، وأكثرُ أعمالِهم فجورٌ، ولا تقوى لهم، والتَّقوى صفةُ أعمالِ المسلمين؛ وهم قليلٌ يومئذ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77 - 78.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

وممّا يُذكَرُ في دلالةِ تقديمِ الفُجورِ على التَّقوى بيانُ الواقعِ البشَريِّ في كلِّ العُصور من ناحية الإيمان وعدمه؛ فالنّاظرُ إلى تاريخ الأُمَم معَ أنبيائها يجد أنَّ الكثرةَ دائمًا متَّصفةٌ بأفعالِ الفُجور، والقلَّة متَّصفون بالتقوى.

سرُّ التَّعبير بالتَّقوى دون الإيمان:

التَّقوى تشملُ الإيمان

عُبِّر بالتَّقوى دون الإيمان في قول الحقِّ ﷻ: ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾؛ لأنَّ العبد لا يكون متَّقيًا حتَّى يكونَ مؤمنًا؛ فإيمانُه حاصلٌ ضمنًا، ومن جملة التَّقوى: خوفُ النَّفسِ الَّذي أوجبَ سُكونَها وتحرُّزَها بوِقاياتِ الشَّريعة[1].

وفي لفظ التَّقوى مراعاةٌ للتَّناسُب في التَّعبير؛ فالفُجور يدلُّ على الزيادة في المعاصي والكفر، والتقوى تدلُّ على الزّيادة في أخذِ الحذرِ والحيطةِ من الوقوعِ في المعاصي؛ لهذا المعنى عُبِّرَ بالتَّقوى دون الإيمان.

سرُّ تعدية الإلهام إلى الفُجور والتَّقوى:

العقولُ وسيلةُ إفهامِ ما جاءَت به الرُّسل

تعديةُ الإلهام إلى الفُجور والتَّقوى في قولِه ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ مع أنَّ اللّه أعلمَ النّاسَ بما هو فُجورٌ وما هو تَقوى بوساطةِ الرُّسل؛ باعتبار أنَّه لولا ما أودعَ اللّه في النُّفوسِ مِن إدراكِ المعلوماتِ على اختلافِ مَراتبِها لَما فهموا ما تَدعوهُم إليه الشَّرائعُ الإلهيَّة، فلولا العُقولُ لَما تَيَسَّرَ إفهامُ الإنسانِ الفُجورَ والتَّقوى، والعِقابَ والثَّواب[2].

دلالةُ إسنادِ الفعل (ألهمها) إلى ضميرٍ مذكَّر:

جاء فعلُ (ألهمها) بصيغةِ الإسنادِ إلى ضميرٍ مذكَّرٍ باعتبار أنَّ تأنيثَ مصدر التَّسوية، تأنيثٌ غيرُ حقيقي، أو لمُراعاةِ لفظ (ما) على جَعلِها موصولة[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370.

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ احتباك، وذلك أنَّ ذِكرَ الفُجورِ أوَّلًا دالٌّ على السُّكون الذي هو ضدُّه ثانيًا، وذِكرَ التَّقوى ثانيًا دالٌّ على ضدِّه، وهو عدمُ الخوف أوَّلًا[1].

بلاغةُ جواب القسَم بين الحذفِ والذِّكر:

تعدَّدتِ الأقوالُ في تعيين جواب القسَم؛ فيحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ جوابَ القسَم، وحذفُ اللّام لطولِ الكلام[2] المقتضي للتَّخفيف؛ لأنَّ الماضيَ إذا كان جوابًا يقترن بـ (قد) واللّام، والأصل: (لقد أفلح) (ولقد خاب)، فحُذفت اللّام دون (قد)؛ إذ المقامُ يقتضي التَّأكيدَ بحرف التَّحقيق[3]، والمقصودُ تحقيقُ فلاحِ المؤمنينَ وخيبةِ المُشركين، وجملة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ في موقعِ الدَّليل لمضمونِ جملة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خابَ كخيبة ثمود[4].

فـلاحُ المـؤمـنِ وخيبةُ المُشركِ محقَّقان

ويحتملُ أن يكون جوابُ القسَم محذوفًا تعويلًا على دلالةِ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ عليه، وتقديرُ الجواب: لَيُدَمْدِمَنَّ اللّه تعالى على كُفّار مكَّة؛ لتكذيبهم رسولَ اللّه ﷺ، كما دَمدَمَ على ثمود؛ لتكذيبهم صالحًا عليه السلام[5].

ويجوزُ أن يكونَ تقديرُ الجواب؛ لقد سَعِدَ أهلُ الطّاعةِ وشَقيَ أهلُ المعصية[6]. أو أن يكونَ جملةً معترضةً بين القسَم والجواب؛ لمناسبةِ ذِكْر إلهام الفُجورِ والتَّقوى، أي: أفلحَ مَن زكَّى نفسَه، واتَّبعَ ما ألهَمَهُ اللّه من التَّقوى، وخابَ مَن اختارَ الفُجورَ بعد أن أُلهِمَ التَّمييزَ بينَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 294.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 371.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 648، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 545.
(6) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 978.

الأمرَين بالإدراك والإرشاد الإلهيِّ. وهذه الجملةُ توطئةٌ لجملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾؛ فإنَّ ما أصابَ ثمودَ كان من خَيبتِهم؛ لأنَّهم دسّوا أنفسَهم بالطَّغوى[1].

سرُّ التَّناسب بين الأقسام وجوابها:

ذِكرُ الأدلَّة على وجودِ الله يحثُّ على تزكيةِ النَّفس

لَمّا أراد ﷻ الحثَّ على تزكيةِ النَّفس، أقسَمَ على ذلك بما يَدُلُّهم على العِلمِ بوجودِ الصّانع، وتنزيهِ ذاتِه، وكمالِ صِفاتِه الَّذي هو أقصى دَرَجاتِ القوَّةِ النَّظريَّة، ويُذَكِّرُهم عَظائِمَ الإله؛ ليَحمِلَهم على الاستِغراقِ في شُكرِ نعمائِه الَّذي هو مُنتَهى كمالاتِ القوَّة العمليَّة[2].

بلاغةُ ترتيبِ هذه الآيات:

صلاحُ البدنِ بسلامةِ النَّفسِ ورَجاحةِ العقل

لمّا افتتحَ بذِكر آية النَّهار - وهي الشَّمس - أتبَعَهُ ذِكرَ آية اللَّيل، وهي القمر، فقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾. ولمّا ذَكَر الآيتين، ذكَرَ ما هُما آيتاه، وبدأ بهما؛ لأنَّه لا صلاحَ له إلّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبدَن إلّا بالنَّفس والعقل، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾.

ولمّا ذكرَ أصلَ الضّياء؛ ذكرَ محلَّ الظَّلام، فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾. ولمّا ذكَر الآيتين ومحلَّ أثرِهما؛ ذكرَ محلَّ الكلِّ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾. ولمّا ذكرَ البناءَ - وهو السَّماء - ذكر المِهادَ، وهو الأرض، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾. ولمّا أتمَّ الإشارة إلى النُّفوس لأهل البصائر؛ صرَّح بالعبارة لَمَن دونهُم، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

أمرُ الهدايةِ والغوايةِ بيد الله

ولمّا كان أعجبُ أمور النَّفس الفُجورَ مع عِلمِها بأنَّه قبيحٌ ومعاقَبٌ عليه، وبأنَّ التَّقوى حسنةٌ ومُثابٌ عليها - لأنَّ البهيمة لا تُقدِمُ على ما يضرُّها وهي تُبصر، والآدميَّ يُقدِمُ على ما يضرُّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 371.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 482.

وهو يعلم - قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ مُخبِرًا بأنَّ هذا لا يَقدرُ عليه سِواه[1].

ذِكـــرُ جـــزاءِ المُـطـيـعـيـنَ والعاصينَ

وبعد أن ذكرَ تعالى أنَّه ألهَمَ النُّفوسَ معرفة الخيرِ والشَّرِّ؛ ذكرَ ما تلقاهُ جزاءً على كلٍّ منهما، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

دلالة ﴿قَدْ﴾ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾:

الـفـلاحُ لِـمَـن زكَّى نـفـسَـهُ حـكـمٌ ربّاني

﴿قَدْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ لتأكيد فلاحِ مَن زكَّى نفسَهُ، وتحقيقِ حصوله، وبيانِ أنَّه أمرٌ قد حكمَ اللّه تعالى به.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أَفْلَحَ﴾ ماضيًا:

حـقـيـقـةُ زكـاةِ النَّفسِ جَمعُها بين خيرَي الدُّنيا والآخرة

عُبِّر بالفلاح في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ للدَّلالة على أنَّ مَن زكَّى نفسه قد فاز بكلِّ مطلوب، ونجا من كلِّ مكروه[3]؛ لأنَّ الفلاحَ هو الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ دُنيويَّةً كانت أو أُخرَويَّةً. والفلاح: نيلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه[4]. وجيءَ بالفعلِ ماضيًا؛ لزيادة تأكيدِ حصولِ الفلاح، وبيانِ أنَّه أمرٌ لا يَعتريهِ ريبٌ ولا شكٌّ.

دلالة ﴿مَن﴾ في ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾:

الـفـلاحُ حـكـمٌ شاملٌ لكلِّ مَن زكَّى نفسَهُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ دون (الذي) لدلالتها على العُموم؛ فهي صادقةٌ على كلِّ إنسانٍ زكَّى نفسَهُ بأن اختارَ لها ما به كمالُها ودفعُ الرَّذائل عنها، فالإنسانُ والنَّفسُ شيءٌ واحدٌ، ونُزِّلا منزلة شيئين باختلافِ الإرادة والاكتساب[5]. والإتيانُ بلفظ ﴿مَن﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الفلاحَ حُكمٌ شاملٌ لكلِّ مَن زكَّى نفسه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 69 - 78.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 168.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 210 - 211.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفِعلِ التَّزكيةِ ماضيًا مُضعَّفًا:

الـدَّعـوةُ إلى الاستـزادةِ من أبواب الخير

عُبِّر بالتَّزكية في قول الباري ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه استزادَ من الخير[1]، ونمّاها وأصلحَها، وصفّاها تصفيةً عظيمةً بما يسَّرَهُ الله له من العلوم النّافعةِ والأعمالِ الصّالحة، وطهَّرَها على ما يسَّرَهُ لمُجانبَتِه من مذامِّ الأخلاق؛ لأنَّ كُلًّا ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له[2]. وصَوغُ الفعلِ ماضيًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الفلاحَ إنَّما يكونُ لمَن تحقَّقَ منه تزكيةُ نفسِه، ولأنَّ تزكية النَّفسِ سابقةٌ على حُصولِ الفلاح؛ لأنَّها شرطُ حُصوله.

ويدلُّ تضعيفُه على بذلِ الجُهدِ في إصلاحِ النَّفسِ وتطهيرِها من الذُّنوب، والارتقاءِ بها بالإيمانِ والعملِ الصّالح.

دلالةُ إضمارِ الفاعلِ في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ و﴿دَسَّىٰهَا﴾:

الإنسانُ يُزكِّي نفسَهُ بتقديرِ اللهِ وخَلْقِهِ وتمكينِهِ

أضمَرَ الأسلوبُ القرآنيُّ فاعلَ (زكّى) و(دسّى)، وجعلَهُ ضميرًا يعودُ على ﴿مَن﴾[3]، والمعنى: قد أفلحَ مَن زكّى نفسَه، أي: اكتسَبَ الزَّكاءَ الَّذي قد خَلقَهُ الله[4]. ويجوزُ أن يكون الفاعلُ ضميرًا يعودُ على الله تعالى[5]، والمعنى: قد أفلح مَن زكَّى الله تعالى نفسَهُ، أو: قد أفلحَت الفِرقةُ أو الطّائفة الَّتي زكّاها الله تعالى، و(مَنْ) تقعُ على الجَمْعِ والإفراد[6].

نُكتةُ عدمِ ذِكرِ المُزَكَّى به:

حُذِفَ المُزَكَّى به في قولهِ ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ لظُهورِهِ من المقام، والمعنى: قد أفلحَ مَن زكّى نفسَه - أو مَن زكّى الله نفسَه - بالطّاعة وصالحِ الأعمال[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

سرُّ تقديمِ الفلاحِ على الخَيبة:

مُلاءَمةُ الفلاحِ للتَّقوى، وملاءَمةُ الخَيبةِ لذِكْرِ ثمود

قُدِّمَ الفلاحُ على الخَيبة في قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ مع سَبقِ تقديمِ الفُجور على التَّقوى؛ لمُناسبتِه للتَّقوى، وأُردِفَ بخَيبةِ مَن دسَّى نفسَه؛ لتهيئةِ الانتقالِ إلى المَوعظةِ بما حصلَ لثمودَ من عقابٍ على ما هو أثرُ التَّدسية[1].

نكتة عطف ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

ذِكْرُ عاقبةِ السّالكِ سبيلَ الفُجورِ ترهيبٌ لمَن آثرَ النُّفور

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ على قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ لذِكر عاقبةِ مَن سلكَ سبيلَ الفُجورِ بعدَ ذِكرِ عاقبة مَن سلكَ سبيلَ التَّقوى؛ ليكونَ كلُّ عاقلٍ على بصيرةٍ من نفسِه واختيارِه، ولبيانِ منهجِ القرآنِ في ذِكرِ عاقبةِ الضَّلالِ بعدَ ذِكرِ عاقبةِ الهدايةِ والتَّزكية.

بلاغةُ تكرير (قد) في ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

تكريرُ (قد) في قولِ الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِ هذه الآيةِ في إثباتِ الخُسْرانِ لمَن دسَّى نفسَهُ وأهلَكَها، والإيذانِ بتَعلُّقِ القسَمِ به أيضًا أصالةً[2].

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿خَابَ﴾ ماضيًا:

مَن حادَ عن طريقِ الحَقِّ خسِرَ كلَّ مطلوب

آثرَ التَّعبيرَ بالخَيبة في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ دونَ الخُسْرانِ وغَيره؛ للتَّنبيهِ على أنَّه حرَمَ نفسَهُ ممّا أُعِدَّ لغيره في الدّار الآخرة، وخسرَ وكان سعيُه باطلًا[3]، ولم يَظفر بمَطلوبه[4]، ولأنَّ الخَيبَةَ تُطلَقُ على شِدَّةِ الخُسرانِ لِما سَعَى إليه الإنسانُ، وبَذَلَ الجُهدَ فيه، ولكنَّه فقَدَه عند طَلَبِ احتياجِه؛ بخِلافِ الخُسرانِ فيَدُلُّ على النَّقص، والمُرادُ في الآيةِ الدَّلالةُ على فواتِ المَطلوبِ لا نُقصانِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 360.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.

وصَوْغُ الفعلِ ماضيًا؛ لِزيادةِ تأكيدِ حُصولِ الخَيْبَةِ لِمَن دَسَّى نَفسَه، وبَيانِ أنَّه ثابتٌ لا يَتَطَرَّقُ إليه شَكٌّ.

دلالةُ ﴿مَن﴾ في ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ لدلالتها على العموم؛ فهي صادقةٌ على كلِّ إنسان، دسَّى نفسَهُ بأنِ اختارَ لها ما بِهِ نُقصانُها وجَلبُ الرَّذائل لها؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ للإيذان بأنَّ الخَيبةَ شاملةٌ لكلِّ مَن دسَّى نفسَه.

الخيبةُ عاقبةُ كلِّ من دسَّى نفسَهُ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّدسية:

عُبِّر بالتَّدسية في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ دون الإدساءِ ونحوِه؛ لأنَّه تتعدَّدُ مَعانيه؛ فيدلُّ على النَّقص والإخفاء والإغواء؛ لذلك كان التَّعبيرُ به هو الأوفقَ للسّياق؛ لدلالتهِ على أنَّه أغواها إغواءً عظيمًا، وأفسَدَها ودنَّس مُحيّاها، وقذَّرها وحقَّرها وأهلكَها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وقبائحِ النّيّات والأحوال[1]، وحالَ بينها وبين فعلِ الخير؛ لأنَّ أصلَ (دسَّى) أدخلَ شيئًا تحت شيءٍ فأخفاه[2].

ظُلمُ المُعرِضِ عن الحقِّ لنفسِه بخبائثِ الاعتقادِ ومساوئِ الأعمال

غرضُ عدمِ ذِكرِ المُدَسَّى به:

حُذِفَ المُدَسَّى به في قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لظُهورِه من المقام، والمعنى: وقد خابَ مَن دسَّى نفسَه - أو مَن دسَّى اللّه نفسَه - بالمعاصي[3].

بلاغةُ القسَم بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾:

يَدُلُّ هذا الخِتامُ على أنَّ نَفْسَ الإنسانِ أمانةٌ عنده؛ فيَجبُ عليه أن يَرعاها وألّا يَظلِمَها بالمعاصي؛ لأنَّ المعاصي تُصَغِّرُ النَّفسَ

تدسيةُ النُّفوس تكون بالمعاصي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 371.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 77.

وتُحَقِّرُها، وتجعَلها كالَّذي يُدَسُّ في التُّراب، كما أنَّ الطّاعاتِ تُنمّيها وتُزكّيها وتُعْلي من شأنِها، وفي هذا الخِتامِ إشارةٌ إلى إثباتِ فِعلِ العبدِ من التَّزكيةِ والدَّسِّ.

بلاغةُ الطِّباقِ في الأقسام المذكورة:

صـورة جميلة تـجـمـعُ بـين الـشَّيءِ وضِـدِّه تُنبِئُ عن قُدرةِ الخالقِ سبحانه

في هذهِ الأقسامِ يوجدُ طِباقٌ بين الشَّمسِ والقمر، والنَّهارِ واللَّيل، والسَّماءِ والأرضِ، وفُجورِها وتَقواها، وفي كلٍّ اثنَيْنِ من هذه المُتضادّاتِ يَرى القارئُ للآيات صورةً جميلةً تجمعُ بين الشَّيءِ وضِدِّه تُنبِئُ عن قُدرةِ الخالقِ سبحانه، وقد سَبقَتِ الإشارةُ إلى ذلك في الإيضاحِ اللُّغويِّ والبلاغيِّ.

بلاغةُ المُقابلةِ في الأقسام المذكورة:

تتميَّزُ الأشياءُ بالضِّدِّ

في هذه الآياتِ توجدُ مُقابلاتٌ قُرآنيَّةٌ بين قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾، وبينَ قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقولِه: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وفي هذه المُقابلات يَرى السّامعُ صورتَين مُتقابلتَين، وفي ذلك تأكيدٌ للمَعاني المقصودة؛ إذْ بضِدِّها تتمَيَّزُ الأشياء.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصُّبح والضُّحى والفجر:

الحقُّ والهِدايةُ كـالـشَّـمـسِ السّاطعة

الصُّبح: أوَّلُ النهار، وهو وقتُ احمرارِ الأُفقِ بحاجب الشَّمس[1].

والضُّحى: انبساطُ الشَّمسِ واشتدادُ حرارتها[2]. والفجرُ فجران: الكاذب، وهو ظُهورِ خَيطٍ أبيضَ عموديٍّ يَظهَرُ من جِهةِ طُلوعِ الشَّمس، ثمَّ لا يلبثُ أن يَختفيَ، ويَعقُبه ظُهورُ خَيطٍ أبيَضَ أفُقيٍّ يَبدأ بالانتشار؛ إيذانًا بشُروقِ الشَّمس، ويُسمَّى الفجرَ الصّادق[3].

(1) الراغب، المفردات: (صبح).
(2) الراغب، المفردات: (ضحي).
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 656.

وقد عُبِّر بالضُّحَى هنا؛ لأنَّ المَقصودَ ذِكْرُ حالةِ انبساطِ الشَّمسِ واشتدادِ حَرارَتِها؛ ليُمثَّل بها صورةُ ظُهورِ الحَقِّ والهداية.

التّالي والتّابع:

القمرُ يأتي بعدَ الشَّمس

علاقةُ التّالي بالمَتلوِّ زمانيَّة حسب، تقول: تلا الشَّيءَ، إذا جاءَ بعدَهُ عن قصدٍ وعِلم، أو عن غير قصدٍ وعِلم، وتقول: تبعَهُ، إذا اقتفَى طريقتَه أو معتقَدَه أو فِكرَه أو منهجَه أو نحوَ ذلك. والتّالي من جِنسِ المَتلوِّ، ويأتي بعدَهُ مباشرةً، والتّابعُ لا يُشترَط فيه هذان الأمران[1]. وقد يكونُ التّابعُ قبلَ المتبوع في المكان؛ كتقدُّمِ المَدلولِ وتأخُّرِ الدَّليل[2].

وقد عُبِّر بـ ﴿تَلَىٰهَا﴾ هنا؛ لأنَّ المُرادَ هنا أنَّ القمَرَ يَجيءُ بعدَ غيابِ الشَّمسِ دأبًا في كلِّ وقت[3]، ولو قيل: تبِعَها؛ لكان المرادُ أنَّه يَتبعُها في طريقتها، ويسيرُ على مِنوالها، وليس ذلك بمُراد[4]. وإنْ أُريدَ أنَّه يَتلوها في الاستدارة وكمالِ النّور فالتَّلْوُ مجازٌ عن التَّأخُّر في الرُّتبة، والعلاقةُ مُطلَقُ التَّأخُّر[5].

الطَّحو والدَّحو:

الأرضُ مبسوطةٌ من كلِّ جانب

الدَّحوُ والطَّحوُ كِلاهُما يدلُّ على بَسْط الشَّيء، وقد يُستعمَلُ الدَّحوُ في قَشْرِ ظهرِ الأرضِ، وجَرْفِ ما عَلَيها تمهيدًا لتسويتها، والطَّحو: ما تؤولُ إليه بعد الدَّحو[6]. وقد عُبِّر بالطَّحو هنا؛ للدَّلالةِ على بسطِ الأرضِ من كلِّ جانب[7]، وتمهيدِها للسُّكنَى والجُلوسِ

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 349 - 350.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 310.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 485.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 350.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 287 - 288.
(6) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 527 - 528.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 163.

والاضطجاعِ والسَّير[1]، وجَعلِ النّاس ينتفعونَ بما على ظهرِها من نباتٍ وحيوان، وبما في باطنها من مختلف المعادن[2].

النَّفسُ والرّوح:

جملةُ الإنسان معدَّلةٌ أحسَنَ تعديل

قد يُطلَقُ لفظُ النَّفس، ويُرادُ به جملةُ الشَّيء وحقيقتُه، يقال: قتلَ فلانٌ نفسَه، وأهلكَ نفسَه، أي: أوقعَ الهلاكَ بذاته كلِّها وحقيقته. والنَّفس: عينُ الشَّيء وكُنهُه وجَوهَرُه، ويُؤكَّد به، يُقال: جاءني الملكُ بنفسِه، ومن اللُّغويّين مَن سوَّى بين النَّفس والرّوح، وقال: هُما شيءٌ واحد، إلّا أنَّ النَّفس مؤنَّثة، والرّوح مذكَّرة، وقال غيرُه: الرّوح: الَّذي به الحياة، والنَّفس: الَّتي بها العقل، فإذا نامَ النّائمُ قبضَ الله نفسَهُ، ولم يَقبضْ روحَهُ، ولا تُقبض الرّوحُ إلّا عند الموت، وبالرّوح تكونُ حركةُ الإنسانِ ونُموُّه[3]. وقد عُبِّر بالنَّفس هنا؛ للإشارة إلى جُملةِ الإنسانِ الَّتي عدَّلها ﷻ أحسنَ تعديلٍ، ووهَبَها العقلَ.

التَّسوية والتَّعديل:

خِلْقةُ الإنسانِ عجيبةٌ غيرُ متفاوتة

يُقال: عدَّلَ القسّام الأنصباءَ للقَسْم بين الشُّركاء، إذا سوّاها على القيَم[4]. وتسويةُ الشَّيء: جعلُه سواء، إمّا في الرِّفعة، أو في الضَّعَة[5]. وقد عُبِّر بتسوية النَّفس هنا؛ للإشارة إلى خَلقِها سواءً - أي: غيرَ متفاوتة الخلق[6] - وإكمالِ عقلِها ونظَرِها[7]، وللحثِّ على تدبُّر أمرِها للاستدلالِ على مُبدِعِها؛ للسَّعي في إصلاح شأنِها، والمعنى: عدَّلَها على هذا القانون الأحكَم في أعضائها، وما فيها من الجَواهرِ والأعراضِ والمَعاني، وعجائبِ المزاجِ من الأخلاطِ المُتنافرةِ الَّتي لاءَمَ بينها بالتَّسوية، فجَعلَها مُتمازِجة[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 368.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 168.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نفس).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عدل).
(5) الراغب، المفردات: (سوي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 75.

الإلهامُ والتَّعريفُ والتَّعليم والتَّبيين:

شمولُ الإلهامِ جميعَ عُلومَ الإنسان

التَّعليمُ والتَّعريفُ والتَّبيينُ دون الإلهام؛ فإنَّ الإلهامَ هو أن يوقِعَ اللّه في قلبِ العبدِ شيئًا، وإذا أوقعَ في قلبهِ شيئًا فقد ألزَمَهُ إيّاه. وأصلُ معنى الإلهامِ من قولهم: لَهمَ الشَّيءَ والتهَمَهُ إذا ابتلعَهُ، وألهَمتُه ذلك الشَّيءَ، أي: أبلَغتُه، وهذا هو الأصلُ، ثمَّ استُعمِلَ ذلك فيما يَقذِفُهُ اللّه تعالى في قلبِ العبدِ؛ لأنَّه كالإبلاغ[1].

وقد عُبِّرَ بالإلهام هنا؛ للدَّلالةِ على جعلِ النَّفسِ عارفةً بالخَيرِ والشَّرِّ، مُستعِدَّةً ومُتهيِّئَةً لكلٍّ منهما[2]، وليَشمَلَ جميعَ علومِ الإنسان، والمعنى هنا: أنَّ من آثارِ تسويةِ النَّفسِ إدراكَ العُلومِ الأوَّليَّة، والإدراكَ الضَّروريَّ المُدَرَّج ابتداءً من الانسياقِ الجِبلّيِّ نحو الأمورِ النّافعة؛ كطلبِ الرَّضيعِ الثَّديَ أوَّلَ مرَّةٍ، ومنه اتِّقاءُ الضّارِّ؛ كالفِرارِ ممّا يُكرَهُ، إلى أن يَبلُغَ ذلكَ إلى أوَّلِ مَراتبِ الاكتسابِ بالنَّظرِ العَقليِّ، وكلُّ ذلك إلهام[3].

الفلاحُ والفوزُ والنَّجاح:

من زكَّى نفسه نال كلَّ مطلوبٍ ومرغوبٍ، ونجا من كلِّ مكروه

الفلاح: الظَّفَر وإدراكُ البُغية؛ دنيويَّةً كانت أو أُخرَويَّةً. والفوز: الظَّفَرُ بالخير مع حصول السَّلامة[4]، والخلاصُ من المكروهِ مع الوصول إلى المحبوب. والفلاح: نيلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه[5]. والنَّجاح: إدراكُ الشَّيء والوصولُ إليه[6].

وقد عُبِّر بالفلاح هنا للدَّلالة على أنَّ مَن زكَّى نفسَهُ قد فاز بكلِّ مطلوبٍ، ونجا من كلِّ مكروه[7].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 177، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 369 - 370.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 731 - 732.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 210 - 211.
(6) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 732.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"